صفحة من تاريخ الفتوحات النابليونية
تبعتها الحوادث الاخيرة حبة

حملة نابليون

على روسيا[1]

للدكتور مصطفى الديواني

غادر الامبراطور مينا دانتزج في ١١ يونيو ١٨١٢ ووصل الى كوجبرج في اليوم التالي وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه في روسيا الواسعة الارجاء. وكان يهتم بأدق التفاصيل ويملي ارشاداته طول الليل والنهار ويعززها بقوله «يجب ان نحمل كل شيء معنا. ان الالوف المؤلفة التي في حملتي لا يكفيها قمح بلد ما تحتله او تستقر به ولا ما فيه من طعام. فاما تتخذ حيطتنا عرضنا الجيش لجوع محقق ان طجلاً او آجلاً»

وكان قوام الجيش اربعمائة وعشرين الف رجل نظموا في ثلاثة عشر فيلقاً عدا الحرس الامبراطوري وكان يصحبها بضعة آلاف من عربات الذخيرة وقطعان لا تحصر لها من الثيران والف وثلاثمائة واثنان وستون مدفعاً وعشرون الف عربة من مختلف الاحجام. ومائة وسبعة وثمانون الف حصان. وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت الى ضفة نهر (النيمن) وكان الجو بديعاً والسماء صافية والحقول خضراً مزدهرة وكانت الساعة الثانية صباحاً عندما وصل نابليون الى بلدة (كاونو) فأخذ ينظر الى الفضاء الواسع امامه على الضفة الاخرى من النهر فشعر بدهشة غريبة اذ لم يواجه الا ظلاماً دامساً وكان كل شيء يدل على ان أهل هذه المدائن قد هجروها. والواقع ان القيصر اسكندر كان قد أصدر تعليماته بأن ينقهقر الجيش بانتظام امام العدو وان يدمر في اثناء انسحابه المنتظم جميع الجسور والقرى والمدائن فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح او البرد القارس

ونصبت الجسور في ثلاثة مواقع من النهر واخذ الجيش يعبره في نظام ودقة والامبراطور يراقبه عن كثب وبرغم حرصه على ان لا يفقد جندياً واحداً في اثناء عبور النهر فان بعض

(١) مقتبسة عن تاريخ بونابرت للمؤرخ جوزيف آبوت
The life & Napoleon Bonaparte. By J. S. C. Abbott

الفرسان البولنديين حاولوا عبور النهر وهم على ظهور جيادهم فاكتسحهم التيار وقبل أن يتلعهم اليم نظروا خلفهم وألقوا نظرتهم الاخيرة على نابليون وصاحوا وهم في النزع الاخير « يحيى الامبراطور ! » ومضى الجيش في زحفه حتى وصل الى ضواحي مدينة (فيلنا) في اليوم السابع والعشرين . وكان القيصر الكسندر في حفلة راقصة في قصر أحد النبلاء فلما سمع أن نابليون يجتاز نهر النيمن اسرع الى مغادرتها بعد ان أصدر أوامره بأن تحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بما فيها حتى لا تقع في أيدي العدو

ودخل نابليون مدينة (فيلنا) في ٢٨ يونيو فاستقبل استقبال الفزاة الفاتحين . لأن هذه المدينة كانت عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذي اغتصبه الروسيون . فعدّ أهلها الامبراطور محررهم من ربقة الاستعباد وميد مجد ملكهم التي اقتسمتها الدول المحيطة بها

ومكث نابليون في هذه المدينة ثمانية عشر يوماً نظم فيها شؤون جيشه واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير . وعلى الرغم من انه لم يخض معركة ما فانهُ فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه حتى لقد لجأ اليها خمس وعشرون الفاً من الجنود

وفي أثناء مقامه بهذه المدينة أرسل اليه القيصر رسولاً ليعرض عليه استعداده للدخول في مفاوضات للصلح على شرط أن يتقهقر نابليون بجنوده الى ما وراء نهر (النيمن) فرفض الامبراطور هذا الشرط وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقولة . ولكن القيصر لم يسعه الا الرفض نظراً لارتباطه بمعاهدات مع انكلترا عقدت في ذلك الوقت حريته في العمل

ومضى نابليون في تقدمه والروسيون ينسحبون أمامه تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار في كل مكان فكانت جياده تتقن لعدم وجود العلف اللازم وجنوده يقتنون جماعات جماعات من الجوع . وكان الجيش قد توغل خمسمائة ميل في داخل الاراضي الروسية بدون ان يلقى مقاومة أو عدواً فجمع نابليون مجلس الجيش فأشار عليه معظم أركان حربه ان يوقف الزحف حتى حلول الربيع . ولكنهُ رفض هذا الاقتراح رفضاً باتاً وعزم على مواصلة الزحف حتى يختطف بسرعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسي الذين كانوا ينتظرون في لهفة ولوعة نتيجة الحملة الروسية . وكان نابليون يعلم ان القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة سمولنسك استعداداً لمقاومة فاصلة . فاستأنف زحفه في يوم ١٣ اغسطس وكان الحر شديداً لاحقاً فمات كثير من جنوده ونفق كثير من خيله وبعد رحلة شاقة مضنية وصل الى أبواب سمولنسك مساء يوم ١٦ اغسطس فاعتلى نابليون ربوة عالية وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو المحتشدة في نظام واستعداد فصاح وهو مغتبط من أعماق قلبه « ها قد وجدتهم أخيراً »

وحدث قتال بين طلائع الجيشين ، نجح الروس في أثنائها في اخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها . وبعد منتصف الليل فوجىء الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة من قصور ومنازل ومخازن وكنائس . فنظر نابليون في سكون وحزن الى هذا الحريق المخيف وقال « ان هذا المنظر يشبه ما يراه سكان نابولي عندما يثور بركان فيزوف » وعندما دخلت فرقة فرنسية المدينة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لم تجد فيها جنديًا روسيًا واحداً بل بانت قسوة الروسيين في تفهقرهم انهم تركوا جرحاهم ومرضاهم طعمة للنيران. وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الامبراطور الى قمة احدى القلاع وسدد منظاره الى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين أحدهما اتجه شمالاً في طريق بطرسبرج والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ونصب المارشال ناي قائداً على الجيش متجه نحو موسكو .

وبينما نابليون يتجول في أنحاء المدينة متطلعاً الى خرائبها ونيرانها المندلعة تقدم منه كاهن روسي تخلف في المدينة ليعنى بالجرحى والمرضى والاطفال وفي عبرات تنم على الشجاعة حمّل نابليون تبعة ما حل بالمدينة من خراب ودمار فأنصت اليه الامبراطور باحترام حتى انتهى من حديثه ثم سأله « هل أصيبت كنيستك أيها الأب بضرر ما ؟ »

فأجابه القس «ان ارادة الله فوق ارادتك أيها الامبراطور. ان الله حفظ كنيستي لتأوي اليها التاعسون الذين حرقت بيوتهم وأصبحوا بلا مأوى »

فتأثر الامبراطور وقال « إنك لعلى حق أيها الأب . ان الله سيرعى ضحايا هذه الحرب الغشوم ومكافئك على شجاعتك وصبرك . اذهب أيها الكاهن الى كنيستك وبلغ جميع زملائك أنهم في أمان لأنهم يخدمون قضية السلم التي كفلتهم العناية الالهية رعايتها . انتا جميعاً مسيحيون . وربكم هو ربنا

وصرف نابليون الكاهن بكل احترام وأمر بعض جنوده بمرافقته الى كنيسته . ولما رأى اللاجئون في الكنيسة الجنود مرافقين للكاهن صرخوا فزعاً ورعباً فطمأنهم القس قائلاً «لاتخافوا يا أولادي لقد رأيت نابليون وتكلمت معه إنه بشر مثلنا ويعبد الاله الذي نعبده . ان حربه حرب سياسية وليست بحرب دينية . انه في نزاع مع قيصرنا وجنوده تحاربه جنودنا . انهم لا يذبحون النساء والاطفال كما قيل لنا»

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر . وبرغم انتصاراته المتوالية فقد استمر الروسيون في سياسة التخريب والتدمير . فأخذت الجيوش الفرنسية تعاني الأمرين لقد الجوعة والطعام والمأوى . وازدحمت الليالي التي مرت من فعل النيران بآلاف الجرحى والمرضى . وكان

الامبراطور في حالة يأس شديد، ان النكوص يعرضهُ لسخرية اوربا والتقدم لا يعليه عليهِ الا القنوط، ومع ذلك صمم على مطاردة الجيش الروسي حتى موسكو بجيشه الجائع العاري تقريباً ولم يكن يخطر لهُ ان القيصر اسكندر سوف يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ومجدها التليد وسكانها البالغ عددهم ثلاثمائة الف نسمة

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً. وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين وأقامت كل عقبة ممكنة في سبيل الجيش النمس. حتى اذا كان يوم ٤ سبتمبر وصلوا الى مدينة (بورودينو) حيث صادفوا أول مقاومة جدية، اذ ترصدهم جيش قوامه مائة وسبعون الف جندي مجهزين أتم تجهيز ومستعدين لبذل آخر قطرة في سبيل حماية الطريق الى موسكو. وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد وأدرك بنظرته الفاحصة مواطن الضعف التي يجب أن يمتد هجومه اليها ليوقع الارتباك في صفوف العدو. ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم

وجلس نابليون في خيمته يفكر فيما قد يأتي به الغد، واذا برسول يحمل اليه خطاباً وصل في تلك الساعة من زوجته ماري لويز ومعه صورة لولده العزيز. وكان الفجر يوشك ان ينبلج وكان نابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه، ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول في الحال فأخذ منهُ الرسالة بلهفة عظيمة وحالما وقع نظره على ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه. وكانت الصورة تمثل الطفل وهو يلعب في مهده وأمامه كرة وكأس. وأراد الامبراطور ان يشرك معه ضباطه وجنوده في سروره ونشوته فقام من مقعده ووضع الصورة على كرسي خارج الخيمة. فتجمع حولها الضباط والجنود ونظروا اليها في سكون مقابلين بين حالتهم الرثة المتعبة وبينما تسعد به تلك الطفولة البريئة من هدوء وراحة بال. ثم أمر نابليون سكرتيره بادخالها ثانية الى الخيمة وقال في حزن «خذها الى الداخل وحافظ عليها. يجب أن لا تقع عيناه على ميدان قتال وهو في هذه الطراوة»

وحاول نابليون أن ينام قليلاً ولكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك وأصابهُ عطش شديد وعبثاً حاول ان يروي غليله. وما أن بزغ الفجر وانقشعت السحب حتى امتطى نابليون صهوة جواده ونظر الى الشمس المشرقة في الشراح وأمل وقال لمن حوله «اني أرى شمس أوسترليتز» وكانت معركة حامية كاف النصر فيها نابليون غالياً، فقد فقد ثمانية من أعظم قواده من بينهم كونت كولينكور. وما جاء يوم ٨ سبتمبر حتى ملك نابليون ناصية الموقف فاحتل المدينة بينما بدأ الجيش الروسي في التقهقر نحو موسكو. ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة لانهُ فقد في تلك المعركة ثلاثين الف جندي وثلاثة وأربعين من قواده الذين لازموه في انتصاراته السابقة، بين جريح وقتيل. وتخيل حزن اليتامى والأرامل والوالدين الذين فقدوا أعزاءهم

في تلك المعركة الدامية وثوب الحداد الذي سوف تلبسهُ فرنسا لفخامة الخسارة وكثرة الضحايا

ومضى نابليون في زحفه حتى وصل الى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر وبينما هو معتلٍ صهوة جواده أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من بعيد الى موسكو الخالدة بقبابها وما ذنها وصاح من قلبهِ قائلاً «يا الهي ! ها هي ذي عاصمة القياصرة المشهورة » وظن الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء فأخذوا يصيحون بدورهم « موسكو ! موسكو ! » وأسرعوا في التقدم نحو المدينة ولكن عجبهم كان شديداً اذ لم يلاحظوا عليها أثراً ما للحياة او الحركة. وجاءتهم الأخبار من فرق الكشافة ان الروسيين قد هجروا المدينة. ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال النار فيها بالرغم من ان معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء الى القرى المجاورة حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً ، بينما لحق الباقون بالجيش المنقهقر . وكان الانسحاب سريعاً حتى ان السيدات تركنَ حليهنَّ وأدوات زينتهنَّ في أماكنها ، وخلّف رجال الاعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفي الادراج

وعين نابليون (مورتييه) حاكماً على المدينة . وفي الصباح انتقل الى قصر الكرملين واتخذه مقراً وكتب الى القيصر الكسندر يعرض عليهِ صلحاً شريفاً مذكراً اياه بصداقتهما القديمة . وأخذ الجنود يجولون في انحاء المدينة المهجورة . واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم

وبقي بالمدينة حوالي العشرين الفاً من أحط طبقات الروس وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش فأخذوا يعدون العدة في الخفاء لتدمير المدينة واحراقها فتسللوا الى اقبية الكرملين حيث كان يقيم نابليون وأركان حربه والى جميع القصور والابنية التي يقيم فيها الفرنسيون ودسوا فيها سراً مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام في محلها في الوقت المناسب . ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها وعطلوا أدوات اطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروسيون فرصة الهرج الذي ساد عند دخول الفرنسيين المدينة ونفذوا خططهم دون أن يلحظهم أحد

وأوى نابليون الى فراشه في منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ وهو في أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال . وكانت العواصف تهب بشدة . وفجأة امتلأت الشوارع بتلك الصيحة المخيفة التي طالما خشيها نابليون ألا وهي « النار ! النار ! » وتدلعت ألسنة اللهب في شرق المدينة وعم دوي الانفجار في كل مكان فعصفت بالمنازل والقصور وأودت بحياة من فيها . وشوهدت منازل كثيرة وهي تتطاير في الهواء من هول الانفجار . واهتزت أرجاء المدينة في شبه زلزال مخيف . او بركان يتدفق حممه . وساعدت العواصف على

امتداد ألسنة النار في جميع انحاء المدينة فتحولت المدينة في مدة قصيرة الى جحيم

واستيقظ نابليون من نومه وهو جزع مضطرب وأخذ يذرع غرفته جيئة وذهاباً يملي اوامره بينما ينظر في يأس واضطراب الى النيران المندلعة . وكان قصر الكرملين تحيط به حدائق واسعة وأسوار عالية تحول دون وصول النار اليه . فأخذ نابليون يتمتم قائلاً « يا له من منظر مخيف يا الهي ! هل تذهب جميع هذه القصور الفخمة طعمة النيران . يا لهم من قوم قساة ! انها أساليب وخطط وحشية » . واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر وساعدتها الروابع على الانتشار

وأخيراً وصلت النيران الى قصر الكرملين وأحاطت به من كل جانب حتى بدا الهرب منه لأول وهلة في حكم المستحيل . وأخذ الامبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار . وكانوا كلما ظنوا أن الفرج قريب اندلع ستار من اللهب فسدَّ طريقهم وأخيراً وجدوا طريقاً ضيقاً متعرجاً اضطروا الى اقتحامه بالرغم من اندلاع النيران على جانبيه . ولكن ما الحيلة وقد كان ذلك مخرجهم الوحيد من موت محقق . واستمروا في سيرهم والدخان يفعل فعله في عيونهم وحناجرهم . وفجأة وقف مرشدهم وقال انهُ لا يعلم الى أي طريق هم متجهون، فأسقط في أيديهم وظنوا أن النهاية قربت وأسلموا أمرهم الى القدر . ووقف نابليون في عدوة وسكينة يفكر في طريقة للخروج من هذا المأزق . وفجأة ظهر المارشال (دانوست) ، وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاه، فكاد يلمحهُ نابليون حتى احتضنهُ بشوق ولهفة ثم تابع معهُ السير الى خارج أسوار المدينة حيث لجأ الى قصر بتروفسكي على بعد ثلاثة أميال من المدينة

وانسحب الجيش الفرنسي من المدينة وعسكر في الفضاء الواقع حولها . وكان الجوع والجرع قد أخذا منه كل مأخذ . وكان الشتاء يقترب برده القارس وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون اليه عند اشتداد البرد . وكان يفصلهم عن فرنسا المعمورة أكثر من الفين من الأميال . فكان الموقف على العموم داعياً الى اليأس والقنوط

وأخذت النيران تميل الى الخمود ، وتجا جانب كبير من الكرملين من فعل النار فعاد نابليون اليه مع حاشيته في يوم ١٨ سبتمبر . وهو ينتظر وصول رد من القيصر اسكندر على خطابه وما لم يصدر الرد أرسل مندوباً من قبله لمقابلة القائد العام الروسي الكرتوسوف ا فقابلهُ هذا بفتور ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطاب نابليون

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور . وبعد مناقشات تاريخية استقرَّ الرأي على الانسحاب من روسيا

مكث نابليون وجيشه في موسكو مدة أربعة أسابيع بعد احتلالها . ولم يألُ جهداً خلال هذه المدة في اعادة تنظيم جيشه واقرار النظام بعد الفوضى التي سادت عقب حريق موسكو المدمّر . ما أكثر الليالي التي قضاها وهو يعمل على راحة جنده وخاصة الجرحى منهم ويراقب في قلق تطور الجو المنتظر فراجع التقارير الجوية عن الاربعين السنة التي سبقت الحملة ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقي في روسيا وكان يحدوه أمل الصلح مع القيصر ولكنهُ تبين الخطر فاستعجل همهُ وشحب لونهُ ونقص وزنهُ

وبحلول شهر أكتوبر بدأت اوراق الاشجار تتساقط تاركة الأغصان عارية تتلقفها ريح الشمال العاتية . وبدأ الثلج والصقيع قبل ميعاده الطبيعي بثلاثة أسابيع مما زاد في هم الامبراطور وتصميمهِ على الاسراع في الارتداء في أحضان بولندا ، بعدها العامرة حيث يجد الجنود ناراً وطعاماً ومأوى . وبالرغم من ان المسافة الى بولنده حوالي الف ميل الاّ انهُ صمم على القيام بهذه الغامرة معتزماً ان يسلك طريقاً آخر غير الذي سلكهُ عند زحفه آملاً ان يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والأطلال والحرائق التي تركها الروس وراءهم عند تقهقرهم

وبدأ التقهقر في يوم ١٨ اكتوبر ١٨١٢ . وعهد نابليون الى مورتييه — وكان قد عينهُ حاكماً على موسكو — في حماية مؤخرة الجيش وترك معه ثمانية آلاف جندي. وخرج الامبراطور من قصر الكرملين في فجر ١٩ اكتوبر وكانت السماء صافية والهواء بارداً منعشاً والنجوم تتألق. ولما خرج نابليون من حدود موسكو كانت الشمس قد اشرقت في الأفق البعيد فأشار اليها نابليون بأصبعهِ قائلاً لمن حوله « أنظروا يا رفاقي انها هو ذا نجمي الطارق ! هيا بنا الى كالوجا . والويل لمن يقف في طريقي !»

ثم تقدم الى مورتييه — حاكم موسكو — واحتضنه وقال له بصراحة وحزن « ان مهمتك شاقة وخطيرة ولكن علينا واجبات وتضحيات سوف تتقاسمها جميعاً »

وقد أخفى مورتييه وراء أسوار الكرملين . ووضع في أقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين الف رطل من البارود ووزع براميل كثيرة منهُ في غرف القصر وممراته حتى اذا ما استوثق من ان آخر جندي فرنسي قد رحل عن المدينة أشعل النار في البارود فأخذ يشتعل ببطء بينما أخذ هو وجنوده ينسحبون بسرعة ولما رأى القوزاق ان القصر أصبح خالياً هجموا عليه طامعين في الاستيلاء على ما به من نفائس . ولكن ما لبث ان دوى في الجو صوت انفجار هائل أتى على القصر وما به وقضى على عدد كبير من جنود العدو . وكان الانفجار شديداً فاستيقظ نابليون من نومه مع أنهُ كان على مسيرة ثلاثين ميلاً من موسكو . فتنهد تنهد الارتياح إذ علم ان جنود المؤخرة قد غادروا المدينة

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب في مساء ٢٣ اكتوبر وكان الجنود مستغرقين في نوم عميق وقد أنهكهم عناء السير طول النهار. في الساعة الرابعة صباحاً هجم عليهم خمسون الف جندي روسي وكانت صرخات الحرب المزعجة تنطلق من حناجرهم في سكون الليل. فأسرع الامير أوجين الى جنود فرقته وأيقظهم من سباتهم ليقاتلوا العدو المغير وبعد معركة شديدة خسر فيها الفريقان اضطر الروسيون الى الانسحاب نحو الغابات المجاورة ولما سمع نابليون بما فعله أوجين دعاه اليه وضمه الى صدره في حنان أبوي وقال «هذا أعجبُ مأثرة بها في حياتك»

واستمرت كرات العدو في فترات متقطعة على الجيش التعس ورغم ذلك صمم نابليون على متابعة السير ليصل الى سمولنسك ومنسك مهما يكلفه ذلك حيث كان قد ترك حامية قوية وأعدّ تكنات للجنود بها جميع وسائل الراحة. وكان الروسيون يبدون منتهى القسوة في هجومهم على جيش نابليون وكانوا يغيرون عليه في الليل والنهار بلا هوادة غير مبالين بحاجة جنوده الى ساعات قليلة من الراحة في الليل او النهار. ومضى الجيش المنهك في رحلته المحفوفة بالأخطار فوصل الى بورودينو في يوم ٢٨ أكتوبر وفيازما في يوم ٣١ منه. وهناك عهد الى المارشال (ناي) في مهمة حماية مؤخرة الجيش. وعندما استأنف الجنود مسيرهم هبت عاصفة ثلجية على الجنود ودفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج. ويالبت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أحاطت بالجيش وهو في محنته جماعات من جنود العدو وأخذوا يصوبون ناراً حامية. وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى أشنع تمثيل، وكانوا اذا رأوا جندياً يعالج سكرات الموت ينزعون ملابسهُ ويتركونهُ عارياً وسط الثلوج وينصرفون عنهُ وهم يضحكون في قسوة وغلظة. اما اذا اخذتهم الشفقة عليه فانهم كانوا يشطرونهُ بسيوفهم أو ينخسونهُ بالسنج حتى يدركهُ الموت

وهكذا استمرت الحال طيلة الطريق الى سمولنسك. يأتي الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه فتهلك معهُ الالوف من الجنود والخيل. وكان الجنود ينزعون جلود الجياد النافقة ويلتحفون بها. وكانوا يضطرون أحياناً الى قتل الجياد حتى يرتوي الجنود بدمائها الساخنة لعلها تساعدهم على مقاومة البرد. وكان المارشال (ناي) مولة الرحمة يتولى حماية المؤخرة على أوفى وجه. وكان جنوده يستقطون الواحد تلو الآخر حتى يضطر عن آخرهم فيستبدفهم بغيرهم. وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب «أشجع الشجعان»

وقبل الوصول الى سمولنسك جاء رسول يحمل بعض الرسائل الى الامبراطور فخذيفضها باهتمام وتلهف مذ به يعلم بتدبير مؤامرة في باريس لقلب الحكومة الامبراطورية. فقد زور

احد الضباط واسمه (مالیه) مستنداً بثبت موت نابليون في اثناء الحملة الروسية فساد الذعر في البلاد وانتهز مالیه الفرصة وجمع حوله بضع مئات من الحرس الاهلي وحاول ان يقبض على زمام الحكم ولكن المؤامرة سرعان ما احبطت وقبض على الضابط واعدم رمياً بالرصاص

فصمم الامبراطور على أثر قراءة هذا التقرير ان يسافر وحده في أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه ولما دخل غرفته استدعى الجنرال راب وقال له « ان المصائب لا تأتي فرادى ! كأنَّ الله يريد ان يزيد في متاعبي واشجاني ! ان وجودي في باريس ضروري ويجب ان أعود اليها في القريب العاجل »

ومكث نابليون في سمولنسك خمسة أيام استجمع فيها قوات جيشه وشرذمه المبعثرة وما ان استأنف رحلته حتى بدأت معها متاعب اخرى مردُّها الى إغارات العدو المتوالية. وكان أهمها الهجوم الكبير الذي قام به القائد الروسي كوتوسوف بجيش من تسعين الف رجل وافي العدة ووافر الغذاء والملبس . وكانت المعركة شديدة خسر فيها نابليون الآلاف المؤلفة من جنوده واضطر لاعتناق الحسام بنفسه قائلاً « انني أنزل من مقامي كامبراطور لاعود الى منصب الجنرال الذي طالما تقت اليه »

وقاد جنوده واخترق صفوف العدو وأوقع الاضطراب فيها مما اضطرهم الى الانسحاب رغم تفوقهم عدداً وعُدّة بعد ان تكبد الفريقان خسائر فادحة

وواصل الجيش سيره وقد أخذت منهُ الغارات المتوالية كل مأخذ ولعلَّ كارثة عبور نهر (البرزينا) كانت أشد كارثة لحقت بالجيش الفرنسي . وكان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر . فكان على الفرنسيين ان يقيموا جسراً آخر . وفعلاً نجحوا في تضليل أنظار العدو الذي ظن بهم ريثما أتموا بناء الجسر وكانوا يشتغلون في أثناء الليل ويختبئون في الغابات في أثناء النهار . وكان الامبراطور يشرف بنفسه على العمل

ولما حان وقت عبور النهر تقدم نابليون الجموع وعبر النهر الى الضفة الاخرى وقد صاح عند وصوله قائلاً « ان نجمي لا يزال عالياً ! » ولكنه ما كاد يتم كلمته حتى فتحت مدافع الروس وصوبت قنابلها الفتاكة نحو الجسر فمزق وقتل ألوف من جنوده . ولكن نابليون جمع ما تبقى عددا بضع عشرات من الألوف ورد هجوم العدو بينما أخذ المهندسون في إصلاح الجسر منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم . واضطر العدو اخيراً الى التقهقر مؤجلاً انتقامه الى فرصة أخرى

ووصل الجيش المنكوب الى الاراضي البولندية واضطر نابليون مرغماً ما فتئ قواده الى العشاء معه وبعد ان قرر منه أبدى لهم رغبته في الرحيل الى فرنسا تاركاً لهم مهمة اتمام

الرحلة مؤكداً لهم انه سيعود اليهم قريباً على رأس ثلاثمائة الف جندي مجهزين مدربين ليستأنف زحفه على روسيا . ثم ضمهم الى صدره الواحد بعد الآخر . وكانت الساعة قد بلغت العاشرة مساءً . فأعدت له زحافتان انتظرتاه عند الباب فتجمع حوله ضباطه مودعين اياه في تأثر . وركب احداها نابليون وجلس بجانبه كولينكور (وهو شقيق القائد الذي قتل قبلاً) وركب الاخرى دوروك ولوبان . وكان حرسهم مؤلفاً من بعض أفراد الحرس الامبراطوري

وبعد رحلة قصيرة تعرض نابليون في أثنائها للاسر بضع مرات وصل الجميع بسلام الى (فيلنا) ودخلوا وارسو في ١٠ ديسمبر . وبعد راحة قصيرة استأنفوا رحلتهم فوصلوا درسدن في الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر وفي منتصف ليل ١٨ ديسمبر كانوا على أبواب باريس

وكانت الامبراطورة في ذلك الوقت قد أوت الى مضجعها في قصر التويري ولم يكد يخطر لها أن زوجها الامبراطور بباب القصر . وفجأة سمعت أصوات عالية صادرة من الحرس الواقفين في الردهة الخارجية . وبدرت من احدى الوصيفات صرخة خافتة فاستيقظت الامبراطورة من ان شيئاً غير عادي قد حصل فقفزت من سريرها وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قصير القامة وقد غطى جسمه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه بالفرو الثقيل وهجم عليها واحتضنها ولما دققت النظر عرفت فيه زوجها الامبراطور

وأتى نابليون هو الحملة الروسية وراءه على المارشال (ناي) وأعوانه . وأبدى المارشال شجاعة وتجلداً سوف يتحدث عنهما التاريخ لمدى أجيال مقبلة . وعند عبور نهر النيمن) الذي تنتهي عنده الاراضي الروسية كان هو آخر من عبر النهر وأطلق آخر رصاصة لديه على الجنود الروسيين المتربصين في الضفة الاخرى ثم ألقى بمدفعه في النهر وواصل سيره ، حتى بلغ منزل طبيب القرية المجاورة فوجد هناك صديقه الجنرال (دومنيك) جالساً مع الطبيب وهما يتحدثان . وكان المارشال يمثل الحملة بمتاعبها وبؤسها والاهوال التي لاقتها فكان ضامر الجسم شاحب الوجه طويل الذقن وقد اسود جلده من دخان البارود . ولما دخل الغرفة حتى ارتمى على مقعد قريب وقال « انني هنا أخيراً . ماذا دهاك يا دومنيك وماذا تنظر اني هكذا ألا تعرفني ؟ » فكان الجواب « لا ! من أنت ؟ »

فقال (ناي) « انني مؤخرة الجيش الامبراطوري . أنا المارشال ناي . لقد أطلقت آخر رصاصة عندي بعد عبور جسر كوفنو وألقيت فيه آخر ما تبقى عندي من السلاح ثم احترقت الغابة المجاورة ووصلت اتقافاً الى حيث وجدتك يا صديقي العزيز »